انصرف الرجل، ثم عاد بعدها ومعه المبلغ، وكانت المفاجأة!

لقد جاء ومعه خمسون ألفًا!!

استشاط مولانا غضبًا وعنَّفه قائلا: إحنا اتفقنا علىٰ أربعين يبقىٰ تجيب أربعين بس.

اعتذر الرجل، وسرعان ما انصرف قبل أن يُعاقب بشراء السيارة بثلاثين ألفًا!

هكذا عاش طائيًا سخيًا كريمًا...

القَطِيعَتَان!

«والعفو لا يكون عفوًا إلا عن قوة، والزهد لا يكون زهدًا إلا عن غنىٰ، والإنسانية لا تكون إلا مع الحق والعدل»

العلاقة بمولانا دائمًا علىٰ ما يُرام، أرىٰ فيه العالم العامل الذي لا يكتفي بتعلم العلم وتعليمه، بل يُقدِّم ترجمة عملية علىٰ أرض الواقع، غير أن ديكتاتوريته لم تكن تروق لي أحيانًا، وكثيرًا ما كنتُ أقولُ: إن استبدادك يفوق استبداد أنظمتنا السياسية، وهذا مثال حيٌ علىٰ أن الاستبداد فطري في مجتمعاتنا المريضة!

علىٰ أن موقفين حدثا أدَّيا إلىٰ شبه قطيعة لم تتعدَ في كل مرة عدة أيام، فأما الأولىٰ فقد أرسلني ذات يوم ببعض الأوراق إلىٰ أحد رموز الصوفية المعروفين بكثرة المريدين والأتباع، واستقبلني الرجل بحفاوة وترحاب بالغين، فلم أجد بُدًا من إخراج كتابين كلاهما لي: أحدهما مشترك مع مولانا، والآخر من تقديمه، فأهديتهما إليه، فقلَّبهما عن اليمين والشمائل باهتمام بالغ ولم يُخف إعجابه.

ويبدو أن الرجل قد دار برأسه أو تخيل أن يستعين بي في إنجاز بعض كتبه ودراساته، هكذا فهمتُ بعدما ألمح إلىٰ ذلك إلماحًا..

تغافلتُ عن الرد والتعليق كأني لم أفهم مراده، مضت ساعة يتعرَّف فيها عليَّ، ويعرفني بنفسه ونتحدث في بعض الأمور، ثم استأذنته في الانصراف.

ألحَّ عليَّ كثيرًا في المكوث، غير أني اعتذرت لظروف السفر.

تنحَّىٰ في ركن غرفته الواسعة، ثم أسرع ليودعني علىٰ الباب، وإذا به يفعل أمرًا عجبًا!

صافحني وبكفِّه بعض ورقات مالية من فئة المائة جنيه، ثم قال: هذه نفحة لا تُرد..

كنت وقتها مخيرًا بين أمرين: أن أقذف له هديته، فأُسيء إليه كما أساء إليَّ، أو أعتذر بالحسنىٰ حتىٰ لا أُغضب مولانا عويس.

اخترتُ الثانية علىٰ مضض، فأنا رسوله إلىٰ الرجل وممثل لشخصه، ولو حدث مني ما يكرهه سيكون العتاب شديدًا.

حاولت إخفاء غضبي وثورتي خلف ابتسامة عريضة مصطنعة، واعتذرت بحميمية ولطف شديدين، لكنه ألحَّ، شكرته.. لكنه أصرَّ.

«هذه نفحة لا تُردُّ يا مولانا».. كرَّرها كثيرًا حتىٰ مللتها

قلت في نفسي: نفحة، نفحة! إن النفحة لم تأت في القرآن إلا في موضع الذم (ولئن مسَّتهم نفحة من عذاب ربك ليقولن يا ويلنا)

لم أجد عن تركه مَصْرِفًا.

لم تمض سوىٰ ساعات قليلة حتىٰ اتصل بي والدي- بارك الله عمره- يحدثني بلهجة قاسية لم أعتدها، لقد اتصل مولانا يشكو له (جلافتي) في التعامل مع من أرسلني إليه اليوم.

قصصت عليه الأمر، فقال: معك حق، ولو صنعتَ معه أكثر من ذلك ما كان عليك من مَلامٍ.

تنفستُ الصعداء، ثم اتصلتُ بمولانا لأشرح له الأمر، فلم يكن لديه استعداد ليسمع ما أقوله، وبادر بإنهاء المكالمة مما أثار غضبي..

مرَّت عدة أيام لا أتصلُ ولا يتصل، وأثار ذلك فضول البعض، وجعل الرفاق يتساءلون!

ويبدو أن أحدهم- ربما كان محمد الحداد- اتصل بي فقصصت عليه ما حدث، فذهب إلىٰ مولانا فنقل الموقف، فتأسَّف لذلك كثيرًا؛ لأن صاحبه أفهمه أنني تعاملت معه بكبرٍ وأَنَفَةٍ ولم يذكر موضوع النفحة.

كنتُ في البلد عندما اتصل مولانا بالمنزل، فردتْ عليه الوالدة ردًا مقتضبًا علىٰ غير عادتها، وسرعان ما نادتني: كلم يا ليدو.. هكذا تُحب أن تناديني- بارك الله في عمرها.

فرد عليها: إذا كنت بتدلعيه كده، أمال مراته تقول له إيه؟! هاهاها

- السلام عليكم يا أخي، أنا اسمي عبد الحليم عويس

- أهلا وسهلا، مرحبًا

- فينك من كام يوم

- موجود يا أستاذنا

- طيب تأتيني اليوم إن استطعت أو غدا

- لا أظنني سآتي بعد كل ما حدث، ولو سامحتك لنفسي ما سامحتك عن والدي، لقد ظنَّ الرجل بي ظن السوء، وأيقن في لحظة أن تربيته صارت هباءً منثورًا، ثم إنك فعلت ما فعله داود عندما قال:

(لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِ) دون أن يسمع إلىٰ الطرف الآخر، وكان الأحرىٰ بحضرتك أن تُنحِّي والدي عن الموضوع، وتتصل بي لتسمع مني مباشرة، بدلا من اعتماد مكالمة الرجل علىٰ أنها قرآن لا يتبدل..

- والله يا أخي كان ذلك في ساعة غضب، وعلىٰ العموم يا سيدي متأسفين لك، أما الوالد فأنا به كفيل لأنه رجل طيب، ولو موجود جنبك نعتذر له.

- الوالد؟! (قلتها بصوت عالٍ، كان الوالد بجانبي يتابع الحديث فأشار بالرفض، وانصرف عن الحجرة التي كنت فيها) فلم أجد مفرًا من القول إنه ليس هنا، وأشرتُ إلىٰ الحجرة.

تجاوزنا الأزمة، وعادت المياه إلىٰ مجاريها، وتثاقل المرض علىٰ مولانا شيئًا فشيئًا.

***

وبقدوم شهر رمضان يزداد التصاق المريد بشيخه..

وككل المصريين، فللشهر عند أستاذنا مكانة خاصة. هو شهر للعبادة والولائم معًا، لا ينفصل أحدهما عن الآخر، ولا أظنه يطيق مرور يوم دون إطعام صائمين في بيته، ولا عزاء للحاجة نشوىٰ التي تعاني (الأمرّين) في سبيل ذلك.

كالرهينة كنت دائمًا عنده، وفي رمضان يحرم عليَّ الإفطار في أي مكان آخر، وليس لديَّ عذر، فأولادي في بلدتنا مع جديهما، والاعتذار إلىٰ كل من يدعوني إلىٰ الإفطار جاهز سلفًا..

في يوم لم تخرج له شمس- كما يقولون في ريفنا المصري- دعاني مولانا كعادته، فاعتذرت بشدة، ألحَّ كثيرا فتمنَّعت، ثم إنه كعادته الديكتاتورية المحببة أنهىٰ المكالمة بقوله:«طيب إن شاء الله بانتظارك يا أخي.. السلام عليكم» لم يترك فرصة للرد.

كان الذهاب مستحيلا، فأسامة ابن الحاجة نشوىٰ وأولاده سيفطرون معها، ولا أُريد أن أُسبب لهم حرجًا، نعم أسامة يُحبني وأُحبه لدينه وخلقه وأدبه، لكن من حقه وأولاده أن يختلوا بأمه ولو لساعات معدودة قبل أن يمتلأ البيت بالأتراك والقوقاز والأفارقة والمصريين!

لم تك تفصلني عن الإفطار سوىٰ لحظات قليلة عندما اتصل أسامة يبلغني بانتظار الدكتور، عاوَدَ الاتصال مرةً ثانيةً وثالثةً، فاعتذرتُ مرارًا، غير أنه لم يكن هناك بُدٌ من الذهاب راغمًا.

سريعًا.. ارتديتُ ملابسي، وأخذت تاكسيًا يُسارع الزمن علىٰ وقع رنَّات المحمول المتلاحقة..

استقبلني أسامة مُرَحِّبًا بالتزامن مع أذان المغرب.. وسرعان ما دلفت إلىٰ حجرة الدكتور، كانت مفاجأة أشد دويًا من مدفع الإفطار.

دارت بي الأرض عدة دورات عندما استقبلني قائلا: كنت فين يا أخي الله ينتقم منك؟!

لم أَرُدّ من هول المفاجأة..

أحسبُها المرة الوحيدة التي غضبت فيها كل جوارحيز

نعم!، كل جوارحي كانت غضبىٰ..

جلستُ لا أُحرِّك ساكنا، لم أشأ الخروج حتىٰ لا أُسبب حرجًا لأسامة وأولاده وأُعكِّر صفوهم.

جلست في الحجرة مع مولانا وأمامنا الإفطار، أحسست أن فمي موصد لا يُمكنه أن يأذن لطعام مهما كان، شربتُ الماء كأنما تقطعتْ له أمعائي.

الدكتور يتصرف طبيعيا كأن شيئًا لم يكن، كُلْ دي، وخُدْ دي..

مرت اللحظات ثقيلة قبل أن ينتهي الأهل من الإفطار، وما إن رأيت أسامة مُقبلا حتىٰ انتفضتُ قائلا: ائذن لي يا دكتور

تعجَّب مولانا باستنكار قائلا: فيه حاجة؟!

قال أسامة: لا لا.. أبدا، تعال لحظة يا وليد.

خرجنا من الغرفة إلىٰ غرفة الاستقبال، عبثًا حاول إقناعي بأن الرجل في غيبوبة منذ العصر..لم أسمع إليه، فقط كنت أستمع إلىٰ صوت نفسي..

انصرفت رغم توسلات أسامة وماما نشوىٰ..

كنتُ قاسيًا إلىٰ أقصىٰ درجة، لم أُقدِّر مرض الرجل، ونسيتُ كل معروفٍ أسداه إليَّ، نسيتُ كيف كان يحتفي بي وسط الناس.

نسيتُ كيف كان يُقيم مَنْ بجانبه ليفسح لي مجلسا في الصدارة، نسيتُ عبارات الثناء والتنبؤ لي بمستقبل باهر..

نسيت كل معروف صنعه.

يا الله!

كم كنتُ غبيًا وأنانيًا!

مرَّ يومان قبل أن يتصل مولاي:

- السلام عليكم يا أخي.. اسمي عبد الحليم عويس وبعتذر عن اللي حصل مني.

- أأ..أأ.. أبدا يا أستاذنا أنا اللي بعتذر

- يا أخي مش عارف بتوع دمنهور زيك كده كلهم ولا أنت حالة فريدة؟

- كله زي بعضه يا أستاذنا

- طيب يا أخي.. خلص شغلك وتعالىٰ النهاردة هنفطر مع بعض.

لم يتكرر هذا الموقف ولا شبيهٌ له، وأذكر أن المقربين من مولانا كالحداد والميداني تساءلوا أكثر من مرة: لماذا لا يُشتم وليد مثلما نُشتم عند تعكُّر مزاج مولانا بسببٍ من العلاج والغيبوبة؟!

هكذا قالت الحاجة أيضًا.

يا رحمة الله لعويس..